مجنون . . .

للكاتب الفرنسي هنري دي موباسان

بقلم الأديب السيد محمد العزاوي

أبي مس من جنون ؟ أم أن مابي فيض من غيرة فحسب ؟ لست أدري من أمر مابي شيئاً ، ولكنني أكابد مر العذاب ، وأمض الألم . لقد اجترمت يداي إثم طيش ، طيش أهوج مجنون ، إن هذا لحق . ولكن ألا تكفي هذه الغيرة الرابية المبهورة ، وذاك الحب الثائر الخائن اللعون ، وهذا الألم الباهظ المقوت — ألا يكفي كل هذا لأن تأتي إثماً من الأمر وسخفاً دون أن ينزع منا إلى هذا السخف أو ذاك الإثم عقل أو فؤاد ؟

أواه ! إني لآسى وآلم ... وآلم من عذاب دائم حاد مفرط . لقد أحببت تلك المرأة حباً سليطاً طاغياً . ولكن أكان حُبِّيها حقاً ؟ أعلقتها ؟ كلا ثم كلا ! لقد ملكت على حسي ، وحالت بيني وبين نفسي ... أسرت وصرعت ، فكنت في يدها — وما أزال — دمية . كنت ملك النظرة الخاطفة ، واللحظ الرهيف ؛ أسير الغلالة والقد الدقيق ؛ عبد التبسم والشفاه ... وكنت ألهث إذا ما تسلط على هيكلها وتآمر ... ولكنها هي ، صاحبة كل هذا ، وكائنة هذا الجسد ، أمقتها وأحقرها وألعنها ، وكنت أبداً أمقتها وأحقرها وألعنها . فقد كانت كدرة غادرة ، وكانت دنسة ماكرة ، وكانت عط الفساد ومهبط السوء . إنها لحيوان فاسد مثير تخلى عن الروح فتخات عنه ولم تعد بعد فيه ؛ ولم يعد يسير عقله كما يسير نسيم منعش متطلق . إنها البهيم الآدمي ، بل هي أحط من هذا وأقذر . إنها ردغة مستوحلة . هي آية من آيات الجمال البض الغريض سكنت دار الخزي والعار

كان اتصالنا في أول الأمر غريباً جميلاً . وكان يقتلني — بين ذراعيها المفتوحتين أبداً — جنون الرغبة الملحة العاتية . وعيناها كانتا تفغران في كأنما ألهب حلق العطش . كانتا سنجابيتين حين الظهيرة ، مشوبتين بخضرة وقت دلوك الشمس ، وكانتا زرقاوين إبان الشروق . ليس بي مس من جنون ، فإني لأقسم أن كان لعينيها هاته الألوان الثلاثة . فهما في أحايين الحب زرقاوان ثاقبتان ، يتوسطهما إنسانان كبيران مضطربان ، وشفتاها تقلصهما رعدة محمومة ، فربما انفرجتا عن طرف لسان ربق أحمر يتحرك كلسان الأفعوان وجفناها الفضيضان الناعسان تشرعهما في وناء وهينة ، فتكشف عن نظرة مضطرمة وارية ، كانت تزيدني جنوناً . وكنت أحتدم غيظاً إذا ما رأيت نظرتها هذه لدى العناق ، وأرجف حنقاً ورغبة أن أقتل هذا الحيوان الذي تلحف الضرورة في بقائه

وكان فرعي يهتز لوقع خطاها وهي تتخطر في حجرتي ؛ وكان قلبي يثب لخفيف ثوبها إذ تأخذ في خلع ثيابها فتدع ثوباً يقع ، وتخرج منه عارية مخجلة ، وكنت أحس من ريح غلالتها اللاصقة انحلالا رخياً يسري في أعضائي وأطرافي جميعاً ...

وشعرت بأنها ملتني فجأة واجتوتني . إذ رأيت ذلك في عينيها يوماً حين أصبحنا ، فقد كان من دأبي أن أحتو عليها كل صباح أرقب نظراتها الأولى ... وكنت أنتظر — وصدري يدور به الحنق ويحرجه الكره والاحتقار مما — أنتظر مترقباً نظرات ذلك البهيم النائم الذي يهيمن عليّ فأنا له عبد ذليل ، ولكن ما تكاد تبدو لعينيّ حدقتاها الشاحبتان كليلتين سقيمتين إثر الأحضان الأخيرة ، حتى تنقد حواسي ويضطرم كياني . فكأنما نار تلهبني فتستنزف كل عزمي وقواي ، ولكنها حين طالعتني ذلك اليوم طالعتني بنظرة مختلفة حزينة بائسة لا ترجو من العالم شيئاً

آه ! حقاً رأيت ذلك وعلمته ، ولقد شعرت به للتو وفهمته ، إذ انتهى كل شيء انتهى ، كل ما ترجو إلى الأبد ، وعندي على ذلك الدليل يقوم في كل ساعة وثانية !

فإذا ما عانقتها صدفت عني قائلة : « هلاّ تركتني إذن ؟ » أو قبلتها فتقول : « إنك لبغيض ! » أو تقول : « أفلن أجلس حيناً وادعة ؟ ! »

حين ذلك غرت ، ولكن كما يغير الكلاب .. أثارت ما أثارت من تريب وكتمان وحيلة . علمت حقاً أنها ما عرفت عني إلا التفسح مجالاً لآخر تذكي عواطفه وتلهب من حواسه ...

غرت غيرة هادرة طائشة مجنونة ، ولكني لم أكن مجنوناً . كلا ! حقيقة كلا ! وانتظرت ، آه ! ثم حنوت عليها ولم يخب ظني ولم تخدعني عيناها إذ ظلتا باردتين مثقلتين ، وقد تقول حينذاك : « إن الرجال لتؤذيني وتسئمني » ، وكان ذلك حقاً

غدوت حينئذ غيوراً منها نفسها ، ومن عزوفها وتفورها ؛ غيوراً من فراغ لياليها ووحدتها ؛ غيوراً من حركاتها وإشاراتها ، ومن عقلها الذي أستشعر دائماً عاره ؛ غيوراً من كل ما أتوهم وأحدس وأرى وقد تلفاني ، صبح ليلة من لياليها المضطرمة ، بنظرة رضية ناعمة ، كأنما خالطت روحها شهوة فحركت من رغباتها ... حينئذ يحتدم قلبي حنقاً فتختنق أنفاسي في صدري التحرج ، وتصرخ رغبة في نفسي أن أخنقها ، وأهشم عظمها تحت ركبتي ، وأنشب في جيدها أظفاري ، حتى تقر بمخازيها المخجلة وتفضح أسرار فؤادها المرذول .

أبي مسٌّ من جنون ؟

— كلا !

فهأنذا قد انتعشت في إحدى الليالي وانتشيت واستشعرت إحساساً جديداً يخالطها ، وكنت واثقاً من هذا تمام الثقة ؛ فقد كانت تتمتم كما تفعل بعد العناق عادة ، ونظراتها توقدت واضطرمت وذراعاها قد شاع فيهما الدفء والحيا ، واضطرب كيانها أجمع إذ تتحكم فيه الرغبة الثائرة الجموح . وضاعت منه روائح خفية مسكرة ، هي روائح الحب الذي صرع الفؤاد وأعمى البصيرة .

وتفانيت ، ولكن أحاط بها انتباهي كالشرك ، ومع ذلك فما كشف لي منها عن شيء .

وتريثت أسبوعاً ، فشهراً ، ففصلاً . والآن

رأيت جمومتها قد زالت ، وتدفقت فيها حيا مبهمة ، ثم استراحت إلى حياة قوامها عناق ، وعمدتها قُبل

وفى لحظة وامضة أدركتُ ! فما بي مس من جنون ، وإني لأقسم أن ليس بي مس من جنون !

كيف أقص ذاك عليك ؟ كيف فهمتُ ؟ كيف أبيّن لك الشيء المبهم المعقوت ؟ !

إليك ما ينهى إلى كل شيء : فى تلك الليلة التى حدثتك عنها كانت عائدة من نزهة على صهوة جواد فسقطت عنه . وقد جلست ليلتئذ أمامى فى مقعد وثير متوردة الوجنتين ، مخمشة العينين ، مرضوضة الساقين ، صدرها يعلو ويهبط مثل أمواج المحيط . لقد أدركت كل شيء حين رأيتها . إنها تحب ! ولم أستطع أن أخادع نفسى !

حينذاك فقدت شعورى وكرهت أن أنظر إليها . فتحولت إلى النافذة وهناك بصرت بخادم يقود جواداً من عنانه يشبو ويثب ... أما هى فقد نظرت الجواد الفتى الشاب ، وأتبعته بصرها حتى غاب فاستلقت وغفت ...

وطفقت أبحث طول الليل فى ذلك . وخيل إلىّ أننى أوغل فى غموض ما كنت أتوقعه من قبل . ومن زعم أنه عجم عود النساء الأعوج ، وسبر رغباتهن المتضاربة ؟ ومن ادعى أنه فهم تقلباتهن الغادرة ورغباتهن السافلة ؟

* * *

كانت تخرج صباح كل يوم على صهوة الجواد إلى الغاب والسهول ، ثم تعود لاغبة مكدودة فى كل مرة ، كما تفعل عادة بعد أن تسكت عنها نوبة من الحب الطائش . الآن قد فهمت ، فغدوت غيوراً من الجواد النهد الكريم ، واجداً على النسيم العاشق إذ يحتضنها بينا تنطلق فى شوط سريع أهوج ؛ وغدوت حاقداً على أوراق الشجر إذ تقبل أذنيها عرضاً ، حاسداً لأشعة الشمس إذ تلثم جبينها من بين الغصون ، ولذلك السرج إذ يحملها ويلمس فخذيها البضتين

كان هذا كل ما يسرها وينويها ، ويطلق أسارير محياها ويغريها ، وكان هذا كل ما يكدها ويضنيها ، فتلفانى متعبة لاغبة إلى حد الإغماء ...

وأزمعت الانتقام لنفسى . وكنت أتلطف معها فى الخطاب متلطفاً مدللاً ، وكنت أمد إليها يدى لتعتمد عليهما حين تقفز عن صهوة الجواد بعد أشواطها الهوجاء المضنية . وكان الجواد يرمقنى ، ثم يفحص الأرض صبوةً وفتوةً . وكانت تدلله وتربت على كتفه ، أو تحتضن أنفه اللاهث . ولا تنسى أن تمسح على رأسه وأصداغ فمه المزبد . وكان ريحها العطر يضوع من جسد تصبب منه عرق أعرف أريجه وسط الليل . وكان هذا العطر يختلط فى أنفى بريح الجواد الأصهب ...

وطفقت أتحين الفرصة وأتربص الدوائر . لقد كانت تسير كل صباح فى أحراج من السدر توغل فى الغاب ... فى يوم غدوت مع الفجر ، وفى يدى حبل متين الفتل ، وفى صدارى مسدسان محشوان ، كأنى ذاهب إلى مبارزة

وعدوت نحو الطريق التى تحب ، وربطت الحبل فى جذعى شجرتين متقابلتين ، ثم تعقبتها فى الأحراج

وكثيراً ما خبرت الأرض بسمعى . والآن سمعت وقعاً رتيباً من بعيد . وبصرت بشىء من بين الأغصان يسبح فى الهواء سبحاً . آه ! ... لم أخدع فقد كان هو الجواد النهد الأصيل . وأما هى فقد كانت نشوى من فرط السعادة محمرة الوجنتين . وتبدلت نظرات عينيها فهى الآن طروب لعوب ، وتطلقت أعصابها من الهم ، واستراحت إلى تلك القسوة المنزلة

ولما أن كبا الحصان بمقدمه تهشمت عظامه ، وطرح بفتاتى بعيداً فلففتها بين ذراعى القويتين حينذاك على حمل ثور سمين . وبعد أن وضعتها على الأرض فى هينة ورفق دنوت منه « هر » وقد كان يحملق فينا حينذاك ويحاول أن ينهشنى ، فأطلقت عليه الرصاص فى الأذن فخر صريعاً يتشحط فى دمائه الثرة . وقتلته ... كما يقتل الغريم !

ولكنى أنا نفسى سقطت على الأرض وجهى قد أدمته جلدتا سوط كان فى يدها . ولما أن تأهبت لأن تلهبنى بالثالثة أفرغت فى جوفها الرصاصة الأخيرة ...

فخبرنى بربك أكان ما بى مساً من جنون ؟ !

السيد محمد العزاوى

كتاب النقد التحليلى

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

هو أول كتاب فى اللغة العربية عالج النقد الأدبى بالطرق العلمية المؤدية ، والمقاييس المنطقية المنتجة . بناه المؤلف على نقد كتاب (فى الأدب الجاهلى) للدكتور طه حسين ، ولكنه استطرد لدرس مسائل مهمة فى قواعد النقد وأصول الأدب ومناهج البحث حتى جاء الكتاب مرجعاً فى هذا الباب ونموذجاً فى هذا الفن . وهو فى الوقت نفسه يغنى القارئ عن كتاب (فى الأدب الجاهلى) لأنه لخصه تلخيصاً وافياً .

يقع فى ٣٢٦ صفحة من القطع المتوسط
وثمنه ١٢ قرشاً خلاف أجرة البريد
ويطلب من ادارة الرسالة

ليلى المريضة فى العراق

كتاب يفصل وقائع ليلى بين القاهرة وبغداد من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٨ ، ويشرح جوانب كثيرة من أسرار المجتمع وسرائر القلوب فى مصر والشام والعراق .

يقع فى ثلاثة أجزاء
وثمن الجزء ١٢ قرشاً
ويطلب من المكتبات الشهيرة فى البلاد العربية